

الفصل الثامن

كنايات عن يوم القيامة

تتعدد الكنايات في القرآن الكريم عن يوم القيامة، ويوم القيامة - كما يصفه القرآن - هو ذلك اليوم الذي يحدث فيه الانقلاب الكوني العظيم ^(١)، ومما يجلي شدة أهوال ذلك اليوم وتأثيره في الناس قوله - تعالى -: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقْنَا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَقٌّ عَظِيمٌ يَوْمَ تُرَوَّنَا تَذَعَلُ كُلُّ مُرْمَضَةٍ مِمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ ^(٢).

ويستخدم القرآن في التعبير عن ذلك اليوم العظيم ألفاظاً كنادية متعددة، كل لفظ يجلي صفة من صفاته وأهواله، وكلها تشير إلى: انفراط عقد هذا الكون المنظور، واختلال روابطه وصوابطه التي تمسك به في هذا النظام البديع الدقيق، وتناثر أجزائه بعد انفلاتها من قيد الناموس ^(٣) الذي يضبطها بقدره الله وإرادته. كما أن تعدد هذه الكنايات وتجمعها على صعيد واحد يقرب إلى الأذهان والقلوب على نحو من التوكيد أهوال ذلك اليوم وشدته على الكون والحياة والإنسان فيحدث الاستجابة النفسية التي يهدف إليها القرآن، إذ الملاحظ أن هذه الكنايات قد جاءت في سور مكية التي من أبرز أهدافها تأسيس أصول الدين الكبرى في القلوب والنفوس ^(٤)، وهي: توحيد الله ﷻ في ألوهيته وربوبيته للكون والخلق جميعاً، وفي مقدمتها: الإنسان الذي كرمه الله أيما تكريم وفضله على كذاير ممن خلق تفصيلاً ^(٥). لذلك كان من صفات السور المكية وبخاصة السور القصيرة منها أنها ذات أسلوب وإيقاع قويين شديدين في وقعهما يعملان على قرع القلوب بحقائقها التي تؤديها ^(٦).

(١) ينظر مثلاً: سورة التكوين، الآية: ١١، وسورة الانقطار، الآيات: ١-٤، وسورة الانشقاق، الآيات: ١-٥، وسورة المرسلات، الآيات: ٨-١١.

(٢) سورة الحج، الآيات: ٢-١٠.

(٣) في ظلال القرآن: ٨ / ٢٥٣.

(٤) ينظر: صفوة التفسير: ٣ / ٤١٤، وينظر: التفسير البياني القرآن الكريم، د. عداشة عبد الرحمن: ٧٩ / ١.

(٥) ينظر: سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

(٦) ينظر: التعبير الفني في القرآن، بكرى شيخ أمين، ص ٢٥٢. وينظر: التفسير البياني للقرآن الكريم: ٧٩ / ٢.

منها هذه الكنايات التي ترد - على الأعم الأغلب - في مطالع هذه السور فتلفت الانتباه لفتاً قوياً في تلقى المعاني والأصول الكبرى للدين الحنيف.

ومما يتصل بهذه الكنايات عن يوم القيامة كنايات أخرى تتعلّق بمشاهد الناجين والمعذبين في ذلك اليوم المشهود. مشهد الناجين وهم أصحاب اليمين الذين يؤثّون كتبهم باليمين، ومشهد المعذبين وهم أصحاب الشمال الذين يؤثّون كتبهم بالشمال أو من وراء الظهر. وإتياء الكتاب باليمين للناجين الفائزين، وإتياء الكتاب بالشمال أو من وراء الظهر للمعذبين الخاسرين هي كنايات تشير إلى المعنى المكنى عنه الذي يقصده القرآن الكريم، وسنحاول عرضها بعد عرض الكنايات عن يوم القيامة كلّ على حدة بالتحليل الذي يكشف عن المعنى الذي ينطوي وراءها ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

الواقعة:

نأتي الواقعة كناية عن يوم القيامة في موطنين من القرآن الكريم في قوله - تعالى -: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۚ لَيْسَ لَوَقْعِهَا كَذِبٌ ۚ خَاضِعَةٌ رَافِعَةٌ ۚ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ۚ وَنُسِيتِ الْجِبَالُ نَسِيًّا ۚ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا ۚ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۚ﴾^(١) وجاءت في قوله - تعالى - أيضاً: ﴿إِذَا نُفِثَ فِي السُّورِ نَفْثَةٌ وَاحِدَةٌ ۚ وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۚ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۚ﴾^(٢) ﴿وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۚ﴾ المراد: القيامة، وصفت بالوقوع لأنها تقع لا محالة لأي: إذا وقعت التي لا بُدَّ من وقوعها، ووقوع الأمر نزوله^(٣).

وقد عدل عن التصريح بلفظ ﴿الْقِيَمَةُ﴾ إلى الكناية عنه بلفظ ﴿الوَاقِعَةُ﴾ لا لانتباه معناها للقيامة حسب، وإنما لأدبك الشاهد والدليل، وهو أنها ستقع لا محالة، وحتمية وقوعها يشهد بها العقل الإنساني في دراساته العلمية والفلكية التي تؤكد سير العالم إلى نهاية محتومة. وسيرتب على هذا الوقوع مشاهد محسوسة للفائزين بالجنة والخاسرين الذين يساقون إلى جهنم إن لتعبير عن القيامة بالكناية ﴿الوَاقِعَةُ﴾ تدلّ فكرة البعث والنشور من

(١) سورة الواقعة، الآيات: ١-٧.

(٢) سورة الحاقة، الآيات: ١٣، ١٤.

(٣) ينظر: الكشاف: ٤ / ٣٦٢.

دائرة الجدل إلى المسلمات^(١)، وفيه منقح وقعة صادقة ليس لها رجعة ولا ارتداد^(٢) في صورة كلها تهويل وتفخيم لسانها، والتهويل يتجلى من المطلع، فهو يبدأ بإذا الشرطية المحذوف جوابها، وحذف جواب (إذا) يحقق دلالة التهويل والتفخيم لمعناها إذ يترك لخيال المثالي ونفسه أن يذهب في تخيله وتصوره كل مذهب وكله - جواب إذا المحذوف - لا تحيط بوصفه الألفاظ والعبارات أو ليس لها طلاقة تعبيرية عما سيحدث ويقع^(٣) فضلاً عن أن لفظ الكناية ﴿الوَاقِعَةُ﴾ في حد ذاته يفيد العموم والشمول والاشدة والمبالغة في إثبات المعنى وصورته، وذلك لأن لفظ الكناية من الأسماء التي خدمت بناء التأكيد فانتقلت من الوصفية إلى الاسمية، لذا كانت أغلب أسماء الحشر مؤنثة كالقارعة والحاقة والطامة والصاخة لما فيها من العموم والشمول والشدّة والقهر^(٤)، والتعريف في ﴿الوَاقِعَةُ﴾ تعريف الجنس لتمييزها من بين الأجناس لأن في استحضاره زيادة تهويل لأنه تحقيق بالتدبير^(٥) وتتصاعد دلالة تهويل ﴿الوَاقِعَةُ﴾ وتفخيمها بتكرار ﴿إِذَا﴾ الشرطية دون ذكر جوابها أيضاً: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا * وَسَبَّتِ الْجِبَالُ سَبًا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُثْبَّتًا * وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾

وما ذكر من أحداث وأحوال من رج الأرض، وسب الجبال وجعلها هباءً منبثاً هو بمثابة مقدمة مروعة سيكون فيها، فهو التهويل والتفخيم لسانها، فضلاً عن أن الجرس الموسيقي لالفاظ الكنائي ﴿الوَاقِعَةُ﴾ يتناسب مع سياق التهويل والتفخيم ويدل عليه، فـ ﴿الوَاقِعَةُ﴾ بمعناها وبجرس اللفظ ذاته، بما فيه من مد ثم سكون يتوسطهما حرف القاف من حروف الحلق المعروفة بضخامة صوتها وشدّة وقعها في السمع وفي النفس تلقى في الحس كأنما هي ثقل صخيم ينقض من علي ثم يستقر، لغير ما زحزحة بعد ذلك ولا زوال^(٦).

(١) ينظر: سورة الواقعة ومنهجها في العقائد، محمود محمد عريب، ص ٢٧. ولمزيد من التفصيل في توضيح الأدلة العقلية والأخلاقية والاجتماعية التي تدل على حتمية وقوع الواقعة. انظر الصفحات: ١٧ وما بعدها من المرجع نفسه.

(٢) ينظر: الكشف: ٤ / ٣٦٣.

(٣) حذف جواب إذا في القرآن يشكل ظاهرة بلاغية ملحوظة في سياق يوم القيامة وهي تحقق إيجازاً وبلاغة في التعبير، ينظر: المعاني في ضوء أساليب القرآن، ص ٣٤٨.

(٤) ينظر: معاني الأبدية في العربية: ١٢٢، ١٢٣، والعرب يستعملون التأكيد دلالة على المبالغة في النوع. ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢٧ / ١٥٩.

(٥) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢٧ / ١٥٩.

(٦) ينظر: في ظلال القرآن: ٧ / ٦٩٤.

على أن أجلى إحياء لكناية ﴿الوَاقِعَةُ﴾ هو حتمية وقوعها، لذلك قال بعدها ﴿لَيْسَ لَوَقْعِهَا كَذِبٌ﴾ لتأكيد ذلك المعنى وترسيخه في الذهن والحس. فهي لا بد واقعة، كأن طبيعتها وحقيقتها الدائمة أن تكون واقعة، فهي ذات إحياء مقصود في صدد الارتياح فيها والتكذيب^(١).

القارعة :

وردت الكناية ﴿الْقَارِعَةُ﴾ في قوله - تعالى - : ﴿الْقَارِعَةُ ﴿ مَا الْقَارِعَةُ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُورِ ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ السَّنْوَثِ ﴿ (٢)

﴿الْقَارِعَةُ﴾ كناية عن ﴿الْقِيَمَةُ﴾ ، وقد عدل عن التصريح بلفظ ﴿الْقِيَمَةُ﴾ إلى الكناية بلفظ ﴿الْقَارِعَةُ﴾ لا لاثبات ذلك المعنى للقيامة، وإنما لاثبات شاهده ودليله، وهو أنها تفرع القلوب وترعجها بأهوالها، وذلك تفخيماً لشان القيامة في النفوس " (٣).

ولفظ الكناية ﴿الْقَارِعَةُ﴾ في حد ذاته يقيد العموم والشمول والأشدة والقهر في اثبات معناها، لأنها من الأسماء التي خُتمت بئاء التأنيت فانتقلت من الوصفية إلى الاسمية، والكناية ﴿الْقَارِعَةُ﴾ ليست وصفاً لكل ما يفرع وإنما هو اسم لهذا اليوم المخصص^(٤) كما أفاد التعريف تمييزاً لها من غيرها، فهو يوم القيامة الذي لا يحيط بوصف أهواله العقل والتصور، لذلك فإن السياق يفخم من شأن يوم القيامة ويؤكد عظمته بالاستفهام والتكرار: ﴿الْقَارِعَةُ ﴿ مَا الْقَارِعَةُ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿ ، فهو الأمر العظيم الذي يُدِيرُ الدَّسَائِلَ، ثم " أجاب بسؤال التجهيل ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ ولم يُجب عن ماهية ذلك اليوم وحقيقته، فهو فوق التصور والإدراك أجاب بما يكون فيه ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُورِ﴾ ، وهذا الأسلوب الذي يفخم من شأن يوم القيامة ويعظمه هو الملحوظ في كُنَايَاتِ يوم القيامة المروّع المفرع.

(١) ينظر: المصدر نفسه: ٨ / ٢٥٣.

(٢) سورة القارعة ، الآيات: ١ ، ٥ ، ٥ ، وينظر: صورة الحاقة ، الآية: ٤.

(٣) علم البيان ، د. عبد العزيز عتيق ، ص ٢٢٣.

(٤) ينظر: معاني الألفية في العربية ، ص ١٢٢.

على أن أجلى إحياء للكناية ﴿الْفَارِعَةُ﴾ أنها تفرع القلوب والأسماع ينفون الأهوال والأفزع (١) وتفرع الكون بالدمار والتحطيم، ويعمق هذا الإحياء الجرس الموسيقي المنبعث من حروف لفظ ﴿الْفَارِعَةُ﴾ القاف والمراء والعين المعروفة بقوتها وشدةها، هذا فضلاً عن المد في صوت الألف.

وأصل القرع: " الضرب بشدة وقوة، تقول العرب: قرعهم القرعة وفقرتهم الفاقة، إذا وقع بهم أمر عظيم " (٢) ووردت ﴿فَارِعَةُ﴾ ﴿...وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ (٣) ﴿فَارِعَةُ﴾ كناية عن أمر عظيم يقع بهم، وتكثير الكناية ﴿فَارِعَةُ﴾ يدل على العموم والشمول في المعنى، قال الزمخشري: " ﴿تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا﴾ من كفرهم وسوء أعمالهم ﴿فَارِعَةُ﴾ داهية تفرعهم بما يحل الله بهم في كل وقت من صنوف البلياء والمصائب في نفوسهم وأولادهم وأموالهم ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ القارعة ﴿قَرِيبًا﴾ منهم فيفزعون ويضطربون ويتطايرون إليهم شرارها، ويتعدى إليهم شرورها " (٤).

فهي ذات معنى شامل وصفاً لكل ما يفرعهم ويزعجهم من صنوف البلياء في حياتهم الدنيا بسبب كفرهم وسوء أعمالهم، وبهذا التكثير للكناية تفرق في دلالتها عن ﴿الْفَارِعَةُ﴾ بهذا التعريف في دلالتها المخصصة ليوم القيامة، فهي ليست وصفاً لكل ما يفرع، وإنما هي اسم ليوم القيامة على وجه التخصيص. وعلى الرغم من اشتراكهما في دلالة العذاب إلا أن

﴿فَارِعَةُ﴾ خاضعة للوصف والتصور، أما ﴿الْفَارِعَةُ﴾ فإنها لا تخضع للوصف والتصور لهولها وعظمت شأنها يذهب الخيال في تصور شأنها كل مذهب، فهي تفرع قلوب الناس جميعاً وتفرع الكون بالدمار والتحطيم، فيتضاءل أزاءها كل هول أو قارعة تفرع الناس وترزعجهم في حياتهم الدنيا. فمن شأن الكناية ﴿الْفَارِعَةُ﴾ بأهوالها العظيمة التي لا يحيط بها الوصف أن تحدث الاستجابة النفسية المقصودة التي يقصد القرآن إثارتها في المتلقي لتحقيق أهدافه الدينية الكبرى.

(١) ينظر: تفسير أبي السعود: ١٩٢ / ٩.

(٢) صفوة التفسير: ٥٩٥ / ٣، وينظر: لسان العرب: ٢١٥ / ٨ (قرع).

(٣) سورة القارعة، من الآية ٣١.

(٤) الكشف: ٤١٣ / ٢.

الحاقة:

جاءت ﴿الْحَاقَّةُ﴾ كناية عن يوم القيامة في قوله - تعالى -: ﴿الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِوَاعْدِ الْغَارِ عَۃً ^(١)

وقد عدل عن التصريح بلفظ ﴿الْقِيَمَةُ﴾ إلى الكناية بلفظ ﴿الْحَاقَّةُ﴾ وذلك لاثبات الشاهد والدليل، وهو أنها تحقق في وقتها فتنزل بحكمها على الناس بالحق وفي ذلك تفخيم لشأن القيامة في النفوس. ولفظ الكناية ﴿الْحَاقَّةُ﴾ يفيد العموم والشمول والشدة والمبالغة في إثبات المعنى، وهو اسم على وجه التخصيص ليوم القيامة، إنها تحقق الحق في ذلك اليوم الذي لا يحيط به العلم والادراك.

ويصعد الأسلوب الذي شكّلت فيه الكناية معنى تفخيم الحاقة وتبهيها منذ مطلع سورة الحاقة، وذلك بالاستفهام والتكرار، فالمطلع يبدأ بالكناية ﴿الْحَاقَّةُ﴾ كلمة مفردة لا خبر لها في ظاهر اللفظ: ﴿الْحَاقَّةُ﴾ ثم يتبعها باستفهام حافل بالاستعظام لما هيته هذا الحدث العظيم: ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾ ثم يزيد هذا الاستهوال والاستعظام بالتجهيل، وإخراج المسألة عن حدود العلم والادراك: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ ثم لا يجيب عن هذا السؤال. ويدعك واقفاً أمام هذا الأمر المستهول المستعظم، الذي لا تدريه، ولا يتأتى لك أن تدريه! لأنه أعظم من أن يحيط به العلم والادراك ^(٢)

على أن أجلى إحياء للكناية ﴿الْحَاقَّةُ﴾ هو أنها تحقق في وقتها بالحق والجرس الموسيقي يعمق هذا الإحياء ويجلبه فايقاعها " أشبه شيء يرفع النقل طويلاً، ثم استقراره مكيناً. رفعه في مدة الحاء بالألف، وجدة في تشديد القاف بعدها، واستقراره بالانتهاء بالناء المربوطة التي تنطق هاء ساكنة " ^(٣). فيستقر معناها في الذهن والحس والوجدان. وتصعيداً لوصف شدة الحاقة وما تنزل به بالحق من العذاب بالمكذبين قال بعد ذلك: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِوَاعْدِ الْغَارِ عَۃً﴾ التي تقررع الناس بالافزاع والأهوال، والسماء بالانشقاق والانفطار، والأرض والجبال بالندس والندس، والتجوم بالطمس والالكدار، ووضعت موضع الضمير لنذل على معنى القرع في الحاقة: زيادة في وصف شدتها ^(٤)

(١) سورة الحاقة، الآيات: ١-٤.

(٢) في ظلال القرآن: ٨ / ٢٥٠.

(٣) المصدر نفسه: ٨ / ٢٤٦.

(٤) الكشف: ٤ / ٤٧٩.

كفه قال: يفرّ من أخيه، بل من أبويه، بل من صاحبه وبذيه " (١) على سبيل ذكر الخاص فالأخص.

وأجلى إحياء للكناية ﴿الطَّائِفَةُ﴾ العنف في أهوالها النافذة الخلقة فتصمّ أذان الناس بدواهيها الشديدة، فتقطع الروابط والشائج بين أقرب الناس صلةً ورحماً فتلقي في الحس والوجدان تبعية ما يتحمّله الإنسان مجرداً من الوشائج والصلات إلا صلته بالله ﷻ وتقواه.

الطَّائِفَةُ الْكُبْرَى:

تأتي الطائفة الكبرى كنايةً عن يوم القيامة في قوله - تعالى -: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّائِفَةُ الْكُبْرَى ﴿يَوْمَ يَنْذَرُ الْإِنْسَانُ مَا سَئِلٌ﴾ (٢)

وقد عدل القرآن عن التصريح بلفظ ﴿الْقِيَمَةُ﴾ إلى الكناية ﴿الطَّائِفَةُ الْكُبْرَى﴾ لاثبات الشاهد لها والدليل، وهو أنها تطمّ بدواهيها على الدواهي فتعمّ وتعلو، فهي ﴿الطَّائِفَةُ الْكُبْرَى﴾ ليست وصفاً لكل طائفة تأتي بالأمور الهائلة الفظيعة، وإنما هي اسم لذلك اليوم العظيم على وجه التخصيص الذي لا يتمكّن معها العقل والإدراك تصوّر طومومها. قال ابن عباس (رضي الله عنهما): "هي القيامة سميت بذلك لأنها تطمّ على كلّ أمر هائل مفضّع" (٣) وقال الزمخشري: "﴿الطَّائِفَةُ﴾ الداهية التي تطمّ على الدواهي، أي تعلو وتغلب، وفي أمثالهم: جرى الوادي فطمّ على القرى وهي القيامة لطمومها على كلّ هذلة" (٤) وبناء الكناية وجرسها الموسيقي بصوران هذا المعنى وبقرآنه. فصيغة الكناية ﴿الطَّائِفَةُ﴾ تدل على العموم والشمول والشدة والمبالغة، لأنها من الأسماء التي ختمت بئاء التأنيث فقلّبت من الوصفية إلى الاسمية (٥) ففقدت هذه الدلالة فضلاً عن وصفها بالكبرى ﴿الطَّائِفَةُ الْكُبْرَى﴾ لتقوى هذه الدلالة ولتميّزها عن أية طائفة أخرى تأتي بالدواهي والأمور العظيمة، كما أن " الطائفة لفظة مصورة بجرسها لمعناها، فهي تطمّ وتعمّ وتربي ونطغى " (٦) على كل شيء في الكون والوجود، أنها تطمّ على السماء المبنية، والأرض المدحوة، والجبال

(١) الكشف: ٤ / ٥٥٣، ٥٦٤.

(٢) سورة النازعات: ٣٤، ٣٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٤٧٠.

(٤) الكشف: ٤ / ٥٥٧.

(٥) معاني الأنبياء في العربية، ص ١٢٢ - ١٢٣.

(٦) مشاهد القيامة في القرآن، ص ١٩٣.

المرساة، والليل المغطش، والضحى المخرج، أنها تطم على هذا كله، وليغطي مشهدها على تلك المشاهد جميعاً^(١)، كما يبرز السياق لنا ذلك قبل مشهد الطامة ﴿مَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَوْ نَسَمَةً بَيْنَهُمَا﴾ رَفَعَ سَعَتَكُمَا فَسَوَّيْنَاهَا ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ وَالْجِبَالُ أَوَّسَهَا ﴿مَنْعًا لَكُمْ وَلَاقْتِمِكُمْ﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى ﴿^(٢)﴾ ومن ضمن ما تطمه الطامة الكبرى هو المتاع الموقوت الذي ينتهي إلى أجله، قال صاحب الظلال: "إن الحياة الدنيا متاع، متاع مقدر بدقة وإحكام. وفق تدبير يرتبط بالكون كله ونشأة الحياة والانسان. ولكنه متاع ينتهي إلى أجله.. فإذا جاءت الطامة الكبرى غطت كل شيء، وطمّت على كل شيء. على المتاع الموقوت، وعلى الكون المتين المقدر المنظم. على السماء المبنية والأرض المدحوة والجبال المرساة والأحياء والحياة وعلى كل ما كان من مصارع ومواقع، فهي أكبر من هذا كله، وهي تطم وتعم على هذا كله! عندئذ يتذكر الانسان ما سعى، يتذكره ويستحضره، إن كانت أحداث الحياة، وشواغل، المتاع أغفلته عنه وأنسته إياه، يتذكره ويستحضره ولكن حيث لا يفقه التذكر والاستحضر إلا الحسرة والأسى وتصور ما وراءه من العذاب والبلوى!"^(٣)

فأجلى إحياء للكناية ﴿الطَّامَةُ الْكُبْرَى﴾ الذي يبرز من خلال سياق الآيات ويتجلى فضلاً عن طم كل شيء بما فيها السماوات والأرض وطم كل أمر هائل مقطوع، هو أنها تطم ذلك المتاع الموقوت الذي يغتر به الانسان فيلبيه عما خلق له ويغطي، فما أحرى بالانسان أن يتذكر في حياته الدنيا قبل مجيء الطامة الكبرى حين لا ينفع التذكر.

(١) ينظر: مشاهد القيامة في القرآن، ص ١٦٣.

(٢) سورة النازعات، الآيات: ٢٧-٣٤.

(٣) في ظلال القرآن: ٨ / ٤٤٦.

الغاشية:

وردت ﴿الْفَنَشِيَّةُ﴾ كناية عن يوم ﴿الْقِيَمَةِ﴾ في قوله - تعالى -: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْفَنَشِيَّةِ﴾^(١).

﴿الْفَنَشِيَّةُ﴾ كناية عن ﴿الْقِيَمَةِ﴾ وقد عدل القرآن عن التصريح بلفظ ﴿الْقِيَمَةِ﴾ إلى لفظ ﴿الْفَنَشِيَّةُ﴾ لاثبات شاهدها ودليلها، وفي ذلك تعظيم لها في القلوب والنفوس، فالكناية دالة على أنها تغشى الناس بعذابها وتلبسهم أهوالها.

فالكناية اثبات لهذا النوع من عذاب يوم القيامة على سبيل التخصيص، قال الزمخشري: "﴿الْفَنَشِيَّةُ﴾ الداهية التي تغشى الناس بشدائدها وتلبسهم أهوالها، يعني: ﴿الْقِيَمَةِ﴾"^(٢)، والسياق يجلي ملابسة العذاب وجوه الكافرين ومخالطته لها على نحو من التهويل الذي يفيد الاستفهام بـ ﴿هَلْ﴾ ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْفَنَشِيَّةِ﴾؟ إذ يلفت الاستفهام الانتباه لفتاً إلى استماع خبرها، والاطلاع على شأنها، وفي ذلك تعظيم لشأنها وتفخيم له، والجواب عن هذا الاستفهام الذي يسأل عن "﴿الْفَنَشِيَّةُ﴾"، يعرضه السياق تفصيلاً، فنلاحظ في جانب منه كيف يرسم عذاب ﴿الْفَنَشِيَّةِ﴾ على وجوه الكافرين جثثاً ج (٣) فهي وجوه خاضعة ذلاً وإرهاقاً ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ ﴿تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾ ﴿تُشَقُّ مِنْ عَيْنِ أَيْنَةٍ﴾^(٤) بالغة الحرارة لا تبرد ولا تروى ﴿تُشَقُّ مِنْ عَيْنِ أَيْنَةٍ﴾ ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ ﴿لَا يَسْمُونَ وَلَا يُنْفَى مِنْ جُوعٍ﴾^(٥) فهي تطعم من شوك ترعاه الأبل إذا كان رطباً وتعافه إذا جف، فيجتمع على ذلك الوجوه عذاب الروح بالذل والخزي، فضلاً عن عذاب البدن بالنصب والنلر، إلى عذاب الظمأ والطوى، والشراب والطعام، بما هو أشد من الظمأ والطوى. وفي الجانب الآخر نلاحظ ما يقابل هذا على سبيل التضاد نعيم المؤمنين في يوم ﴿الْفَنَشِيَّةِ﴾ وهو يرسم على وجوههم: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ ﴿لَسَعْيُهُمْ رَاضِيَةٌ﴾ ﴿فِي جَنَّاتٍ عَالِيَةٍ﴾ ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لُغِيَّةٌ﴾ ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ ﴿فِيهَا مَرْوٌّ مَرْفُوعَةٌ﴾ ﴿وَأَكْوَابُ مَوْصُوعَةٌ﴾ ﴿وَعَارِقٌ مَصْفُوفَةٌ﴾ ﴿وَزَكَرِيٌّ يُنبِئُونَ﴾^(٦) فوجوه المؤمنين ناعمة، راضية عن مسعاها، في

(١) سورة الغاشية، الآية: ١.

(٢) الكشف: ٤ / ٥٩٢. وينظر: تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٥٠٣.

(٣) الآية: ٢.

(٤) الأيتان: ٣. عاملة ناصبة: قد عملت عملاً كثيراً ونصبت فيه وعلبت يوم القيامة ناراً حامية.

ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٥٠٣.

(٥) الآيات: ٥ - ٧.

(٦) الآيات: ٨ - ١٦. وينظر: مشاهد القيامة في القرآن، ص ١٦٠.

جنة عالية هادئة لا تسمع فيها لآغية، فيها عين جارية روية عذبة، ولهم الراحة في السرر المرفوعة، والأكواب المهيأة للشراب، بل الرفاهية في الوسائد المصفوفة، والبسط المفروشة^(١) وإبراز نعيم المؤمنين الذي يلبس وجوههم ويخالطها في يوم ﴿الْفَتْحَةِ﴾ العظيمة بافزازها التي تلبس الكافرين بعذابها له قيمته الخاصة^(٢)، إذ يتجلى تكريم الله ﷻ لهم، في منجاة بمفازتهم من عذابها الذي يغشى كل شيء.

الآزفة:

جاءت ﴿الْآزِفَةُ﴾ كناية عن يوم القيامة في قوله - تعالى -: ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ^(٣).

﴿الْآزِفَةُ﴾ كناية عن ﴿الْقِيَمَةِ﴾، وقد عدل القرآن عن التصريح بلفظ ﴿الْقِيَمَةِ﴾ إلى لفظ الكناية ﴿الْآزِفَةُ﴾ وذلك تعظيماً لشأنها وتعظيماً من خلال إثبات المعنى الذي تحمله ﴿الْآزِفَةُ﴾ ليوم القيامة والذي من شأنه إحداث الأثر النفسي المتمثل بتخويف المتلقي وترهيبه من شأنها، إذ الكناية تصوّر ﴿الْقِيَمَةَ﴾ وكأنها قد ﴿أَزِفَتْ﴾ بالعذاب والهلاك، والتعبير عنها بالماضي ﴿أَزِفَتْ﴾ يدلّ دلالة بالغة على تحققها وكأنه قد فرغ منها، ومجيء الكناية ﴿الْآزِفَةُ﴾ فاعلاً من مادة الفعل الماضي ﴿أَزِفَتْ﴾ للتحويل على السامع لذهاب النفس كل مذهب ممكن في تعيين هذه التي ﴿أَزِفَتْ﴾، فضلاً عن التعريف في الكناية، فهو تعريف جنس لتمييزها من بين الأجناس لأن في استحضاره زيادة تهويل لأنه حقيق بالتدبير^(٤).

وقال الزمخشري: "﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ قريب، الموصوفة بالقرب في قوله - تعالى -: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ﴾"^(٥)، فهي قد "اقتربت كاسحة جارفة، وهي الطامة والقارعة التي جاء النذير يحذركم إياها أو هو العذاب الذي لا يعلم إلا الله نوعه وموعده، ولا يملك إلا الله كشفه ودفعه: ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾"^(٦).

(١) مشاهد القيامة في القرآن، ص ١٦٠.

(٢) ينظر: المصدر نفسه، ص ١٦٠.

(٣) سورة النجم، الآية: ٥٧، ٥٨. وينظر: سورة غافر، الآية: ١٨.

(٤) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢٧ / ١٥٨ - ١٥٩.

(٥) سورة القمر، من الآية: ١.

(٦) الكشف: ٤ / ٣٣١.

(٧) في ظلال القرآن: ٧ / ٦٣٣.

فأجلى إحياء للكناية ﴿الْآزِفَةُ﴾ هو قرب أزوفها بكل أهوالها وشداندتها التي صورتها الكنايات السابقة، فهي الطامة والقرعة والغاشية والحقولكن السياق هنا يبرز إحياء قريبها وسرعة وقوعها لأنه إنذار وتحذير من العذاب والهلاك الذي حلّ بالأقوام العابرة. قوم نوح وعاد وثمود ولوط، يذكر به وينذر: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ وَثَمُودًا آخِنَ ۖ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ۚ وَالتَّوَفَّكَةَ أَهْوَىٰ ۚ فَفَسَّخْنَا مَا عَصَيْنَ ۚ فَأَيُّ الْآزِفَةِ تَسْمَعُونَ ۚ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِيرِ الْأُولَىٰ ۚ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ۚ﴾ (١) فناسب السياق أن يكون الإنذار بعذاب القيامة بلفظ الكناية ﴿الْآزِفَةُ﴾ الدالة على الإنذار الشديد بقرب وقوعها.

الراجعة والرافدة:

وردت هاتان الكنيتان اللتان تصوّران على نحو شديد ما يقع من الهول والاضطراب في الكون يوم القيامة في قوله - تعالى -: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۖ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۖ ثُلُوبٌ يُومِضُ وَاجِفَةٌ ۖ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ۖ﴾ (٢).

﴿الرَّاجِفَةُ وَالرَّادِفَةُ﴾ كنيتان، وقد ورد لهما أكثر من معنى تحتمله الكنيتان في أداء الغرض المقصود منهما، قال الرّمحسري: "﴿الرَّاجِفَةُ﴾ الواقعة التي ترجف عندها الأرض والجبال، وهي النفخة الأولى: وصفت بما يحدث بحوثها ﴿تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ أي الواقعة التي تردف الأولى، وهي النفخة الثانية. ويجوز أن تكون الراجعة من قوله - تعالى -: ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ (٣) أي ﴿الْقِيَمَةُ﴾ التي يستعجلها الكفرة استبعاداً لها، وهي رادفة لهم لاقتربها. وقيل: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ الأرض والجبال، من قوله: ﴿الرَّادِفَةُ﴾ (٤) وجرؤ ج: السماء والكواكب، لأنها تنشق وتنتشر كواكبها على أثر ذلك" (٥).

وفي ضوء ذلك نلاحظ أن المعنى المكنى عنه بلفظ الكناية ﴿الرَّاجِفَةُ﴾ هو: - الواقعة، وهي (النفخة الأولى) للحدث العظيم (يوم القيامة) وو صفت بالراجعة بما يحدث بوقوعها وهو: رجفان الأرض والجبال والأحياء جميعاً. - الأرض والجبال، ويعزّز هذا المعنى، قوله - تعالى -: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾.

(١) سورة النجم، الآيات: ٥٠، ٥١.

(٢) سورة النازعات، الآيات: ٦، ٧.

(٣) سورة النمل، من الآية: ٧٧.

(٤) سورة المزمل، من الآية: ١٤.

(٥) الكشف: ٤ / ٥٥٤.

ونلاحظ أن المكنى عنه بلفظ الكناية ﴿الرَّادِفَةُ﴾ هو:

- الواقعة، وهي (النفخة الثانية) التي تردف (النفخة الأولى)، ويعزز هذا المعنى قوله

تَعَالَى ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِي يَوْمٍ يُنظَرُونَ﴾ (١).

- سماء، وما فيها أي تردف الأرض وما عليها فتنبعها في الدمار والاندشاق وتناثر كواكبها على أثر ذلك.

- قيامة، التي يستعجلها الكفرة استبعاداً لها، وهي رادفة لهم لاقتربها.

وفي ضوء هذا المعنى للرادفة تكون ﴿الرَّجْفَةُ﴾ مقدمة لوقوع الحدث العظيم ﴿الْقِيَمَةُ﴾

ويمكن أن نفهم ﴿الرَّجْفَةَ﴾ على أنها كناية عن يوم القيامة، ووصفت بالراجفة بما

يحدث بوقوعها من رجفان الأرض والجبال وزلزلة لها واضطراب نظام الكون والأحياء

جميعاً، وكل هذه مظاهر تنبئ عن شدة ذلك اليوم العظيم الذي نياغت فيه الناس بالراجفة،

كما دلّ الإسناد المجازي للكناية ﴿الرَّجْفَةُ﴾: "إذا استند الرجف إلى الأرض نفسها، - والأصل

أنه راجفة، فيتحقق بهذا الإسناد مباغلة لا يدري معها الإنسان يوم ﴿الْقِيَمَةِ﴾ من أين جاء

الرجف، وفيه تركيز للانتباه في أخذة الرجفة (٢).

وأما ﴿الرَّادِفَةُ﴾ فيمكن أن نفهم على أنها كناية عن كل ما يتبع الرجفة من بعثرة ما

في القبور (٣)، للحشر والحساب، ويقوي هذا المعنى أنه يتصل بما بعده: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ

أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ﴾.

ومن شأن هذه الأحداث التي ستقع يوم ﴿الْقِيَمَةِ﴾ أن يحس القلب البشري معها

بالزلزلة والرجفة والهول والاضطراب، وأن يهتز هزة الخوف والوجل والرعب الذي لا

ثبات معه ولا قرار، ويدرك ويحس حقيقة قول الله ﷻ: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

(٢) ينظر: التفسير البياني للقرآن: ١ / ١٣٢.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ١ / ١٣٢.

﴿ فهي شديدة الاضطراب، يرتسم الخشوع في أبصارها فيشير إلى الذل والخوف والانكسار والانهيار (١) ﴾

ويتجلى التناسب الفني في التعبير الكناني ﴿الرَّجْفَةُ﴾ مع القلوب الواجفة والأبصار الخاشعة، فواجفة أي: "شديدة الاضطراب" (٢) و﴿خَشَعَتُ﴾ أي "ذليلة" (٣) بما علّنت من أهوال ﴿الرَّجْفَةُ﴾ التي برّجف عندها كل شيء ويضطرب، ويملكه الخوف والرعب فيرتسم على الأبصار استسلاماً وذلّة وانكساراً.

ومن خلال ما سبق من كنايات عن يوم ﴿الْيَوْمَةِ﴾ تتجمع معانٍ وإيهامات تصف هذا اليوم العظيم الذي يحدث فيه ذلك الانقلاب الكوني الرهيب بأهواله العظيمة، وبفضل هذه

(الكنايات) بصفاتها المتعددة يقترب ذلك اليوم إلى العقول والقلوب، وإلا فإن حقيقته وماهيته لا يحيط بها العقل والإدراك البشري.

على أن القرآن الكريم يقدم تعابير كنائية أخرى تصور شدة ذلك اليوم وكرهه على الكافرين في مشاهد يوم ﴿الْيَوْمَةِ﴾ من ذلك:

الكشف عن الساق:

يرد هذا التعبير الكناني في قوله - تعالى - في مشهد من مشاهد يوم القيامة: ﴿يَوْمَ يَكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٦﴾ خَشَعَتُ أَعْيُنُهُمْ فُلُوجُهُمْ ذُلٌّ وَقَدْ كَانُوا يَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَاقُونَ﴾ (٤)

﴿يَوْمَ يَكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ كناية عن الشدة وصعوبة الخطب، إذ يشتد الكرب والضيق على هؤلاء المتكبرين الذين يدعون إلى السجود - هناك - فلا يستطيعون.

فكناية الكشف عن الساق: مدلٌ في شدة الأمر وصعوبة الخطب (٥) الذي يلقاه الكافرون يوم القيامة، وليس هناك ساق ولا كشف عن الساق كما نقول للأقطع الشحيح: يده مغلوله، ولا يذله ولا غل، وإتما هو كناية عن البخل، وأراد الله ﷻ بهذا التعبير السيلغة في

(١) ينظر: في ظلال القرآن: ٤٤٩ / ٨.

(٢) الكشف: ٥٥٤ / ٤.

(٣) نفسه: ٥٥٤ / ٤ وصفوة التفسير: ٥١٤ / ٣.

(٤) سورة القلم، الآيتان: ٤٢ - ٤٣.

(٥) الكشف: ٤٧٥ / ٤.

حسابهم، وإهانتهم وعقوبتهم، فالكناية تدل على أمرٍ مبهم في الشدة مذكر خارج عن المألوف، كقوله قيل: يوم يقع أمرٌ فظيعٌ هائل (١). والأصل في الكناية "أي من وقع في شيء يحتاج فيه إلى الجدِّ شمر عن ساقه" (٢). فجعل لكل أمر فظيع (٣) وكان من عادة العرب أن يقولوا لكل من يجد في أمرٍ ويبالغ فيه (كشَف عن ساقه) وأصل هذا التعبير، أن من يجد في عملٍ من الأعمال سواء أكان حرباً أم غير حرب، فإنه يشمر عن ساقه حتى لا يعوقه عن الجد وسرعة الحركة، كما نقول اليوم، فلان شمر عن ساعد الجد، وإن كان لا يرتدي قميصاً بأكمام، فعبّر في الكناية باللازم وهو الكشف عن الساق، وأراد ملزومه الجد والاهتمام بالأمر (٤).

فالكناية تجسّد المعنى النفسي وهو شدة الكرب والضيق الذي فيه الكافرون المتكبرون في صورة حسبية مؤثرة، وفوق كربهم وضيقهم فإنهم يلقون التوبيخ والتكذيب ﴿وَيُذْعَنُ إِلَى الشُّجُورِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾. فدعوتهم إلى السجود في يوم القيامة الذي يشمر فيه عن الساعد ويكشف فيه عن الساق يشير إلى تكبيتهم وتوبيخهم، فقد فات أوان السجود، وهم لا يملكون السجود ولا يستطيعون إما لفوات الوقت المناسب، وإما للبهول الذي يغشاهم ويعجزهم عن الحراك، وهم خاشعون الذلة، وقد كانوا يأبون خشوع العبادة ﴿خَنَعَةً أَمْرَهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا﴾ وقد كانوا يذعنون إلى الشجور ولم يستطيعوا. فالتعبير الكنائي فضلاً عن الأيتين اللتين تشكل فيهما يشير إلى الكرب والضيق والعجز والتوبيخ والتحدي المخيف (٥).

جعل الولدان شيباً:

تصور هذه الكناية أهوال يوم ﴿الْيَوْمَةِ﴾ وشدائده، أهوال تشيب منها الولدان، وتنفطر منها السماء، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۝ السَّمَاءُ مَنقُطَةٌ ۖ وَكَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ (١).

(١) ينظر: الكشف: ٤ / ٤٧٤-٤٧٥. وينظر: القرآن إعجازه وبلاغته، ص ٢٢١-٢٢٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٨ / ٢٤٩.

(٣) المفردات: ٣٦٣، ٦٥٠، ٦٥١.

(٤) القرآن إعجازه وبلاغته، ص ٢٢٢.

(٥) ينظر: في ظلال القرآن: ٢٣٨٨. وينظر: مشاهد القيامة في القرآن، ص ٥.

(٦) سورة المزمل، الأيتان: ١٧-١٨.

﴿يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ كناية ترسم في معناها الحقيقي الشيب في نواصي الأطفال في ذلك اليوم، وهي صورة تشير إلى المعنى المكنى عنه وهو شدة ذلك اليوم بأهواله، قال الزمخشري: " فكيف تكون أنفسكم يوم القيامة وهو له، إن بقيتم على الكفر ولم تؤمنوا وتعملوا ﴿يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ مثل في الشدة يقال في اليوم الشديد: يوم يشيب نواصي الأطفال. الأصل فيه: أن الهموم والأحزان إذا تفاقمت على الإنسان أسرع فيه الشيب " (١). وهي شذائد وأحوال عظيمة بأحزائها وهمومها كما يشير تشكيل الكناية شيب الولدان دون غيرهم، فالولدان كما هو معلوم أقل تحسناً بالهموم والأحزان والشذائد، فارتسام الشيب في رؤوسهم يشكل صورة غريبة مثيرة، تشير إلى غرابة ذلك اليوم في شذائده وأهواله، فهي لا تشبه أحوال الدنيا وشذائدها، هي شذائد وأحوال عظيمة يشيب لها الولدان فكيف بالرجال؟ وتتفطر منها السماء على عظمها وإحساسها ﴿السَّمَاءُ مُتَفَطِّرَةٌ يَوْمَ﴾ وعلى الخيال أن يتملى هذه الصورة المروعة فإنها تحذير شديد من ذلك اليوم المخيف الذي لا ريب فيه ولا مفر منه ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾.

ومما يتصل بيوم ﴿الْيَمِّمَةِ﴾ من مشاهد، مشهد أصحاب اليمين، وهم المؤمنون الناجون الذين يؤثرون كتبهم بأيمانهم، فهم أهل الثواب يصفهم القرآن بالتعبير الكنائي ﴿أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ (٢)، ومشهد ﴿أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ (٣)، فهم الكافرون المعذبون الذين يلقون كتبهم بشمالهم أو من وراء ظهورهم، وهم أهل العذاب يصفهم القرآن بالتعبير الكنائي ﴿أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾. ويأتي المشهدان على سبيل التقابل، وذلك حتى يبرز مشهد كلا الفريقين، وتتعق - على سبيل التضاد - دلالتهما في الحس والوجدان بين مصير هؤلاء وهؤلاء.

ونحن إذ نعرض هذه الكنايات فإننا لا ندرى حقيقة الكتاب ولا كيفية آتيانه باليمين أو بالشمال أو من وراء الظهر. وإنما يجلي القرآن الكريم حقيقة (النجاة) من وراء آتيان الكتاب باليمين، وحقيقة (الهلاك) من وراء آتيان الكتاب بالشمال أو من وراء الظهر، وهما حقيقتان المقصود أن تستيقظهما كما أخبر بهما القرآن الكريم (٤).

أصحاب اليمين:

- (١) الكشف: ٤ / ١١٣.
- (٢) سورة المنثر، من الآية ٣٩.
- (٣) سورة الواقعة، من الآية: ٤١.
- (٤) ينظر: في ظلال القرآن: ٨ / ٥١٩.

يستعمل القرآن هذا التعبير كنايةً عن موصوف للدلالة على المؤمنين الناجين من العذاب، فهم أهل الجنة والثواب، من ذلك قوله - تعالى -: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۖ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ۖ فِي جَنَّاتٍ يَدْخُلُونَ ۖ عَنْ الْمَغْرِبِينَ ۖ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۖ قَالُوا لَوْلَا نُفُسُكُم مِنَ الْمَصْلَيْنِ ۖ وَلَوْلَا تَعْلُومُ ۚ أَلَيْسَ لَكُمُ الْمُسْكِينُ ۖ وَكُنَّا نَحْمِلُهُمْ بِالْأَغْبَىٰ ۖ إِنَّكَ كَذِيبٌ بَيِّنٌ ۖ حَتَّىٰ آتَيْنَا الْيَقِينَ ۖ فَمَا تَعْمَهُمْ شَفَعَةُ الشَّفِيعِينَ ۚ ﴾ (١)

﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ هم المؤمنون أهل الجنة والسعادة (٢)، وهم ﴿أَصْحَابُ الْمِئْمَنَةِ﴾ (٣)، أي: اليمين والبركة (٤)، وقال الزمخشري في: ﴿أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ عدة أقوال:

- الذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم.
- أصحاب المنزلة السنية، من قولك: فلان مني باليمين إذا وصفته بالرفعة.
- أصحاب اليمين، لأن السعداء ميامين على أنفسهم بطاعتهم.
- أصحاب اليمين هم الموجهون في الجنة ذات اليمين (٥).
- وأورد الرازي في ﴿أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ ثلاثة أقوال:
- الذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم.
- أصحاب القوة.
- أصحاب النور (٦)، لقوله - تعالى - في الآية الثامنة من سورة التحريم: ﴿تُورَثُهُم بَنَاتُهُنَّ

بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ

ومن خلال الجمع بين هذه الأقوال في ﴿أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ يتبين أن المؤمنين يأخذون نتيجة الحساب كتاباً بأيمانهم، فيجدون الذعيم والثواب، فتكون منزلتهم حسنة، ومكافئهم مرسوقة (٧)، وهو المعنى الذي يفهم من وراء لفظ الكناية.

وكانت العرب تتفاهل بالميامن، وتتطير من المشائم، و "تزجر على السائح، وتذبرك به، وتكره الأبارح، وتذشائم به" (٨)، والسائح: مال ولاك ميامنه، والأبارح: ما

(١) سورة المذثر، الآيات: ٣٨، ٤٨. وينظر: سورة الواقعة، الآيات: ٨، ١٨، ٢٧، ٣٨، ٤٠، ٤١.

(٢) ينظر: التفسير الكبير: ٢٩ / ٤٤٢، والمفردات: ٥٥٣.

(٣) سورة الواقعة، الآية: ٨.

(٤) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢٧ / ٢٨٥.

(٥) الكشف: ٤ / ٣٦٣.

(٦) التفسير الكبير: ٢٩ / ١٤٢-١٤٣.

(٧) ينظر: الفاظ الثواب في القرآن الكريم، ص ٣٠٤-٣٠٥.

(٨) الكامل: ١ / ١٨٩.

ولأك

مياسره (١). واليمن: البركة (٢). ويقال: فلان ميمون النقيبة، إذا كان ميمون الأمر، ينجح فيما حاول ويظفر به (٣). ومن المجاز: هو عنده باليمن، أي: بمنزلة حسنة (٤).

واليمن أيضاً: القوة، قال الشماخ:

إذا ما راية رُفِعَتْ لمَجْدٍ ثَلَاها عراباً باليمن (٥)

قال المبرد: "قوله: ثَلَاها عراباً باليمن، قال أصحاب المعاني: معناه بالقوة، وقالوا

مثل ذلك في قول الله ﷻ: ﴿وَالسَّمَكُوتَ مَطْوِيَةً يَمِينًا﴾ (٦) (٧).

والمسوخ لاستعمال (اليمن) للدلالة على القوة على سبيل المجاز المرسل هو علاقة

السببية، فاليمين سبب القوة، أو الآلية عند عدد من اللغويين على اعتبار أن اليمين آلة القوة.

وذكر عبد القاهر الجرجاني أن "الناس يقولون للرجل إذا أرادوا حذّه على الأمر

وأن يأخذ فيه بالجد: أخرج يدك اليمنى. وذلك لأنها أشرف اليدين وأقواهما التي لا غناء

للأخرى دونها، فلا عُدِيّ إنسان يشيء إلا بدأ بيمينه فهيأها لنيله، ومدّى ما قصدوا جعل

الشيء في جهة العناية جعلوه في اليد اليمنى" (٨). وعلى هذا فاليمين ارتبطت دلالاتها

بالخير والبركة والسعادة والقوة والعناية (٩). وهي المعاني والظلال التي تشير إليها كناية

أَحَبَّ الْيَمِينِ.

وكناية ﴿أَحَبَّ الْيَمِينِ﴾ في سياق الآيات التي أوردناها تدل، فضلاً عما أوجت به من

معانٍ على أن هؤلاء المؤمنين هم السطووقون من الرهن ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهيناً﴾ (١٠)، أي:

"كل نفس رهن بكسبها عند الله غير مفكوك" ﴿إِنَّ أَحَبَّ الْيَمِينِ﴾ فإنهم فكّوا عنه رقابهم بما

أطابوه من كسبهم، كما يدخلص الراهن رهنه بإداء الحق (١١). ومن ذلك يتجلى تكريمهم

(١) لسان العرب: ٢ / ٤٩٠ (منج).

(٢) المصدر نفسه: ١٤ / ٤٥٨ (يمن).

(٣) إصلاح المنطق، ابن السكيت، ص ٣٥٥.

(٤) أساس البلاغة، ص ٥١٤ (يمن).

(٥) أسرار البلاغة، ص ٣٠٩. وينظر: لسان العرب: ١٣ / ٤٦١ (يمن).

(٦) سورة الزمر، من الآية: ٦٧.

(٧) المكامل: ١ / ٧٦. وينظر: أسرار البلاغة، ص ٣٧٠.

(٨) أسرار البلاغة، ص ٣١٢.

(٩) ألفاظ الثواب في القرآن الكريم، ص ٣٠٤.

(١٠) سورة المدثر، الآية: ٣٨.

(١١) الكشاف: ٤ / ٥٢٣.

وفضل الله عليهم في ذلك الموقف الذي يرتثون فيه المكذبون الكافرون بأعمالهم التي تقودهم فلا يفلتوا منها. وتتصاعد دلالة توكريم المؤمنين ﴿أَحْسَبَ الْيَقِينَ﴾ بأن الله ﷻ قد خولهم حق سؤال المجرمين عن مصيرهم الذي انتهوا إليه ﴿مَا سَأَلَكَ عَنْ فِي سَعَرٍ﴾^(١) وهو استقحام يُوحي بإهانة المجرمين، وتعمق دلال إهانتهم من خلال السياق الذي يعرض إجابتهم واعترافهم على نحو من الاطناب: ﴿قَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ النَّارِ﴾^(٢) فهي إطالة في الجواب مقصودة، بين سبب ارتثانهم في موقفهم هذا، وتجلي إهانتهم على نحو عميق، ويبين السياق بالأسلوب الكتاني سبب مصيرهم هذا ﴿قَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ النَّارِ﴾، وهذه الآية كناية لأنها تفهم على الحقيقة والمعنى: أن هؤلاء المجرمين لم يكونوا من المصلين في حياتهم الدنيا. وأما المعنى البعيد المكنى عنه الذي تلمح به الصلاة هو الإيمان كله، فهم لم يكونوا مؤمنين، وبذلك تشير الكناية إلى أهمية الصلاة في الاسلام، فالصلاة رمز الإيمان ودليله، ويدل انكارها على الكفر^(٣).

ويتعزز هذا المعنى المكنى عنه للصلاة ما ذكر بعد ذلك، فإذا ما فقدت النفس الإيمان بالله - سبحانه - فإنها تفقد الدافع إلى فعل الخير ومثله: إطعام المسكين، وتفقد توازنها في الباطل مع الخائضين، وتكذب بيوم الدين، يوم الحساب والجزاء الذي فيه ترتثون بأعمالها كما ترى المجرمين الآن.

وإزاء صورة هؤلاء المجرمين نقف صورة المؤمنين ﴿أَحْسَبَ الْيَقِينَ﴾ على التقابل لينجلي مصير الفريقين على التضاد ويتعمق المعنى في حس المتلقي ووجدانه.

أصحاب الشمال:

يستعمل القرآن هذا التعبير كناية عن موصوف هو الكافرون المعتبون في نار جهنم، فهم أهل الشؤم والعذاب، ذقوا ذلك في قوله - تعالى - ﴿وَأَحْسَبَ الشَّامِلُ مَا أَحْسَبُ الشَّامِلُ﴾^(٤) في سَمُومٍ وَجَمِيمٍ ﴿وَلَا يَرْجِعُ فِيهِمْ﴾^(٥) إِنَّهُمْ كَانُوا فِي ذَلِكَ مَتَرِفِينَ ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَىٰ لَيْتِنِ الْعَظِيمِ﴾^(٦).

(١) سورة المنثر، الآية: ٤٢.

(٢) سورة المنثر، الآيات: ٤٣-٤٧.

(٣) ينظر: في ظلال القرآن: ٨ / ٣٧٠، وينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٩ / ١٦٤.

(٤) سورة الواقعة، الآيات: ٤٢-٤٦.

﴿أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ هم أهل النار والشقاوة، وقال الزمخشري في ﴿أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ عدة أقوال:

- الذين يؤتون صحابقتهم بشمالهم.
 - أصحاب المنزلة الدنيا، من قولك: فلان مني بالشمال إذا وصفته بالضعة.
 - أصحاب الشمال أشقياء، لأن الأشقياء مشائيم على أنفسهم بمعصيتهم.
 - أصحاب الشمال هم الموجهون في النار ذات الشمال^(١).
- ومن خلال هذه الأقوال في ﴿أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ يتبين أن الكافرين يأخذون نتيجة الحساب كتاباً يشمالهم، فيجدون العذاب والعقاب، فتكون منزلتهم دنياً، فهم الأشقياء المشائيم على أنفسهم، كما قال فيهم - تعالى - في موضوع آخر: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَيُحِبُّونَ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ عليهم نَارٌ مُؤَسَّدَةٌ^(٢).
- ﴿أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ هم: أصحاب الشمال والشوم أي المشائيم على أنفسهم^(٣) و هم: ﴿عليهم نَارٌ مُؤَسَّدَةٌ﴾ من وصدت الباب وأصدته: إذا أطبقته وأغلقته^(٤) أي: مغلفة عليهم فهم فيها محبوسون، هذا هو المعنى الظاهر، أما المعنى المكنى عنه البعيد هو خلودهم في النار لا يخرجون منها بحكم إغلاقها عليهم، وكلا المعنيين ملازمان مقصود.
- إتيان الكتاب من وراء الظهر:

تأتي هذه الكناية (إتيان الكتاب من وراء الظهر) في موطن واحد مقابل إتيان الكتاب باليمين، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿يَتَأْتِيَ الْإِنْسَانَ إِنَّكَ كَارِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدَمًا مَّكْفِيَةً﴾ فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كَيْتَهُ، يَمِينُهُ ﴿فَسَوْفَ يَحَاسِبُ حِسَابًا سَعِيرًا﴾ وَيَغْلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كَيْتَهُ، وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾ وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّنْ يَحُورَ ﴿بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾^(٥).

تعد الكناية ﴿وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ صورة جديدة في التعبير عن المعذبين المشؤمين وذلك بالقياس إلى التعبيرين الكنائيين السالوفين في القرآن الكريم وهما: ﴿أَصْحَابُ اليمين﴾ الذين يأخذون كتبهم بأيمنهم، و ﴿أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ الذين يأخذون كتبهم بشمالهم، فهما الصورتان

(١) الكشاف: ٤ / ٣٦٣.

(٢) سورة البلاء، الآية ١٩: ٢٠.

(٣) ينظر: الكشاف: ٤ / ٦٠٤. وينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢٧ / ٢٨٥.

(٤) الكشاف: ٤ / ٦١٤. وينظر: أساس البلاغة، ص ٥٠١ (وصد).

(٥) سورة الانشقاق، الآيات: ٦-١٥.

المالوفتان في استعمال القرآن. أما الكناية ﴿وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ فهي صورة جديدة لا تأتي إلا في هذا الموضع من القرآن.

قال الزمخشري في هذه الكناية: ﴿وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ قيل: تَغَلَّ يَمْنَاهُ إِلَى عِذْقِهِ، وَتَجْعَلُ شِمَالَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، فَيُؤْتَى كِتَابُهُ بِشِمَالِهِ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ. وَقِيلَ: تَخْلَعُ يَدُهُ الْيُسْرَى مِنْ وَرَاءِ

ظَهْرِهِ " (١). لذلك لا يمتنع أن يكون الذي يُعطى كتابه بِشِمَالِهِ يعطاه من وراء ظَهْرِهِ، فهي هيئة الكاره المُكره الخزيان من المواجهة (٢).

والبادي أن الكناية ﴿وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ صورة حسية اعْمَقَ وَأَغْلَظَ وَأَعْنَفَ فِي تَصْوِيرِهَا لِلْمَعْنَى وَفِي إِحْضَائِهَا عَنِ الْخَزْيِ وَالْمَهَانَةِ وَالنِّسْيَانِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْكِنَائِيَّيْنِ (الاشمال ووراء الظهر) تَشِيرَانِ إِلَى حَقِيقَةِ الْهَلَاكِ وَالْثُبُورِ.

ولعل في كناية ﴿وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ إشارة إلى حياتهم الدنيا التي اتَّخَذُوا فِيهَا آيَاتِ اللَّهِ وَرَسُولَهُ هُزُوءًا بِالنِّسْيَانِ وَالْإِهْمَالِ كَمَا تَعْبُرُ الْكِنَايَةُ الْوَارِدَةُ فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى - عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ سَيِّدِنَا شُعَيْبٍ ﷺ مُخَاطَباً قَوْمَهُ: ﴿قَالَ يَنْفَعُكُمْ آرَعُطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخِذُوا وَرَاءَ ظَهْرِكُمْ ظَهْرِتًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُخِيطٌ﴾ (٣).

﴿وَاتَّخِذُوا وَرَاءَ ظَهْرِكُمْ ظَهْرِتًا﴾ كناية عن النسيان والإهمال، قال الزمخشري: "﴿وَاتَّخِذُوا وَرَاءَ ظَهْرِكُمْ ظَهْرِتًا﴾ ونسيتموه وحعلتموه كالشيء المتيبذ وراء الظهر لا يعياً به" (٤)، وتقول العرب: "جعل هذا الأمر وراء ظهري أي تولى عنه معرضاً، لأن ما يجعل وراء الظهر لا ينظر إليه، فهو كناية عن الإعراض" (٥). فالكناية تجسد صفة هؤلاء في صورة حسية مؤشرة موحية بحماقتهم وغلظتهم وسوء تصرفهم إذ يعرضون عن آيات الله وبهملتهم كالشيء الذي لا يعبا به، فهو الجحود للنعمة في أبشع صورها.

وفي ضوء ذلك فإن كناية ﴿وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ تشير إلما فعلوه في حياتهم الدنيا، وفيها إحياء بنسيانهم وإهمالهم فيكون الجزاء من جنس العمل.

(١) الكشف: ٥٨٠ / ٤.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن: ٥١٩ / ٨.

(٣) سورة هود، الآية: ٩٢. وينظر: سورة البقرة، الآية: ١٠١، وسورة آل عمران، الآية: ١٨٧.

(٤) الكشف: ٣٣١ / ٤. وينظر: الفروق اللغوية، ص ٢٤٥.

(٥) صفوة التفسير: ٨٤ / ١.